فلسـ ـفة برجسـ ـ ـون

في نهاية القرن التاسع عشر كانت تتحكم في الحياة العقلية أربـع موجـات قويـة وجهت الفكر الانسانى حينذاك، منها صدود سبنسر عن الميتافيزيقا وعدها فوق متنـاول العقل البشرى، ومنها تشاؤم شوبنهور ومذهبه في أنه يوجد تحت كل وجود إرادة للحياة، ومنها فلسفه تين الحسية التي ترد كل شيء إلى الحواس والاحساسات.وبجانب ذلك قامت فلسفه روحية ضعيفة هي فلسفة لاشلييه وبنزولا ترجع الضمير الانسانى والحرية إلى عناصر حسية أو أخرى مادية وإنما ترى فيها حقيقتين مستقلتين تعرفان بإحساس داخلي مباشر. وكان أغلب هذه الفلسفات يقوم على العقل البحت والعقل ينفرد دائماً من الاعتماد على الذاتية وعلم الشخص المائل مع الأهواء والظروف الغريبة ولذا أنكرت الأخلاق والضمير وغير هما مما لا تقوم له قائمة إلا بمعونة إحساس الإنسان وتقديره الذاتي.

فلما جاء القرن العشرون تأثر هذا الجو بموجه جديدة جـاءت معاكـسه لهـذه الموجات الثابتة كأنا ترد عليها وأول ما يميز هذه الموجة الفكرية الجديدة أنـا لا تـؤمن بالعقل إيمان الموجات السابقة به ولا تعتمد عليه في دعم بنيانـا، هنـا نجـد فيلـسوفاً كبرونتييريترك العلم ويجحده ويسكن إلى الإيمان ويتعزى به ونجد بارجوبينو ينشىء فلسفة قومية إلهامها الوطن ومحبته، ونجد جوبينو يتفلسف في الأجناس مدفوعاً بعاطفة لعزة ألمانية، وكل هذه تعاليم لها نصيبها الموفور من السمو والجمال الأدبي وكأنا وجهـت ضـربة شديدة إلى الحقيقة لأنا جعلتها تبعاً لأهواء مختلفة كأهواء القومية أو الجنسية أو الدين.

وقد بعث المذهب الحيوي، بعثة هانزدريتش في ألمانيـا وارتـد أمامـه المـذهب الميكانيكي الذي قام على أساس نظرية داروين وقامت على هذا المذهب الحيوي فلسفات كاملة كفلسفة لسكى الروسي، الذي تصور العالم تصورا عضويا، و جميع هذه الفلسفات تأثرت و وجهت بفلسفة برجسون الذي يعود إليه فضل تجدد الفلسفة الحديثة. والسؤال الآن ماذا صنعت فلسفة برجسون في تحوير معنى النفس والعقل اللذين هما محورا النزاع بين المادية والروحية في جميع العصور ؟

الفلسفة الروحية تعتبر النفس عالما زاخرا بعيد الغور نحس فيه بحريتنا ونعرف بداهـة أن هذه الحرية غير متناهية أما الفلسفة المادية فترى في النفس كما يعد ويحسب وظاهرات متتابعة لها قوانيين تخضع لها خضوع الظاهرات الطبيعية لنواميسها، وبرجـسون في أول كتاب له وهو " الشواهد المباشرة للشعور " قال إن شعورنا لو أمكن أن نتصل به اتصالا مباشرا عن غير سبيل اللغة لألفيناه غير ما نلفاه عادة، نلفاه كيفاً وليس كما، نلفاه تقدماً مستمراً وليس تتابعاً بين حوادث مرتبطة برباط السببية، واللغة هي التي تخدعنا فتجعلنـا نحس أن نفسنا ظاهرات متعاقبة متوالية لأننا نعبر عنها بكلمات منفـصلة لا نـستطيع أن ننطق با دفعه واحدة كما لا نستطيع أن ندرك مفهومها في عملية فكرية واحدة، فـنحن نخطئ حينما نتوهم أن انفصال اللغة انفصال بين أجزاء النفس والحق أن الـنفس ليـست منفصلة إلى أجزاء، وتصورنا هذا يخدعنا مرة أخرى في نكراننا للحرية فان تصور الحوادث متتابعة يرسخ الاعتقاد بوجود علاقة سببية بين الحوادث المتتابعة بحيث أننـا لا نـستطيع تصور حادثتين لا تربطهما علة ومن هنا جاز إنكار العقل لمعنى الحرية في النفس ولكن إذا كانت النفس وحدة وإذا كانت تقدماً مستمرا فكيف يمكن أن نفسر النسيان ؟ ألا يـدل النسيان على أن النفس حوادث منفصلة بدليل أن بعضها يكون حاضرا للوعي والآخر في قبور النسيان ؟ فهي ليست إذا وحدة وإنما هي حوادث متوالية !

على هذا يرد برجسون قائلاً أننا لو كنا نفوساً خالصة لأحسسنا بوحدة كمـا أن الماضي يصير حاضرا أبداً ولكننا أجسام أيضاً وهذه الأجسام لها حياة خاصـة تـستدعى ردود أفعال ضرورية وانتباها حاضرا يقطع على الماضي طريقه إلى الوعي، فالمنفعـة الـتي تصيبها حياة أجسامنا هي سبب النسيان، ولولا هذا النسيان لكانت الحياة ضـرباً مـن المحال. وبرجسون لا يؤمن في مسألة الذاكرة بالميكانيكية التي يقول با بعض من ينـسبون تذكر الصور إلى توارد الخواطر، فالصور تأتى تبعاً للحالات النفسية الـتي يتكـون بـا الشعور، وهنا يتكلم برجسون عن الذاكرة ويقسمها بالذاكرة لحفظ الحركات وأخـرى لحفظ الحالات وملابساتا النفسية وغير هذا مما يعد الكلام فيه كلاماً في التفاصيل الأمـر الذي لم نقصد إليه. أما عن طبيعة العقل فنحن نستطيع أن نميز بين فلسفتين ككل رأى في طبيعة العقل: فلسفة تراه مكانة مجردة لإدراك المعاني وتراه من جوهر مغاير تمام المغـايرة

لجوهر الجسم ومن هنا نشأت الصعوبة في تقرير علاقة الجسم بالعقل وقد كانـت هـذه المسألة الفلسفية من مواضع الضعف الكبرى في فلسفه ديكارت: وفلسفة تراه وثيق الصلة بالحياة، والحياة تفيد معنيين:

الحياة العلمية. والعقل هنا يعتبر وسيلة للعيش لإدراك الحقائق كمـا كـان يقـول الشاكون الإغريق والحياة بمعنى التقدم والأفول. والتقدم يمثل دورة الحياة وانتشارها بـين الأحياء والكائنات. والأفول يرمز إلى وحدتا الأولى التي تنبعث منها. والعقل هنا كمـا كانت تقول الافلاطونيه الحديثة – يسير سيرة هذه الحياة فيجزى الأمور ويفهمها جـزءاً جزءاً ولا قدرة له على إدراك ماهيتها ووحدتا. وبرجسون ينظر إلى العقل بعين الفلـسفة التي تراه مرتبطاً بالحياة وهو يتصوره كآله للعمل غير قادرة على فهم الحياة في وحـدتا. وليس في ذلك طريف. أما الطريف في فلسفه برجسون فهو في ابتداع العلاقة بين العقـل العملي والعقل النظري فليكن العقل عمليا، ولكن كيف نفكر تفكيراً نظرياً ؟ من أين لنا هذا العقل النظري ! لفهم ذلك ينبغي أن نفهم العلاقة بين العقل والحياة. يقول برجسون أن الحياة تتمثل في شكل وثبة حيوية تنزع إلى الكمال وتسرى في النبات والحيوان، وهذه الحياة تسعى دائماً إلى التخلص من المدة التي أشاعت فيها الحياة فاستعملت في سبيل ذلك الغريزة والعقل، والغريزة مجالها ضيق فلم نفد كثيرا في التخلص من ربقة المادة. أما العقـل فقد نجح في ذلك إلى درجه كبيرة فهو يستطيع أن يخلص النفس من عبودية المادة ويجعلها رهن أرادة البداهة أو البصيرة وهى أقرب منه إلى الكمال.

ونماية عمل الغر يزه في سبيل الترقي أن تجمع الإنسان في جماعات جامـدة هـي التمعات الإنسانية فالتمع في رأى برجسون يرجع في نايته إلى هذه الغريزة، أما العقـل فهو مبدع الإنسانية المنظورة الدائمة التقدم، أبدعها عن طريق البصيرة التي تدى الإنسان إلى الديانات السامية والأخلاق الحرة والحقائق الردة. بذه البصيرة نعرف الحقائق مباشرة من غير واسطة، الحقائق في ذاتا لا الحقائق النسبية التي نقدرها بعين التمع الذي نعـيش فيه. هذه هي السمات البارزة في فلسفة برجسون وهى الفلسفة التي ترد أقوى رد علـى فلسفه القرن التاسع عشر وتوجه إلى المادية ضربات شداد. -وسوف نلاحظ آثارهـا في الفلسفة الحديثة بوجه عام.